مقاربات مغربية للنص الرحلي
القيمة والحدود

بوشعيب السّاوري
كلية اللغات والفنون والعلوم الإنسانية جامعة الحسن الأول سطات المغرب

ملخص:

تزايد اهتمام الدراسات الأدبية بالنص الرحلي في تفاعل مع القضايا المتعددة التي تطرحها طبيعته المفتوحة. لقد كان موضوعا لعدد من المقاربات التي أغنت بلا شك الدّراسات الرحلية، وأكدت من جهة أخرى على حيوية النّص الرحلي.

تنطلق هذه المساهمة العلمية من التنوع الذي يسم مقاربة النص الرحلي خلال العقدين الأخيرين في المغرب (أجناسية، صورولوجية، ثقافية، تداولية، ما بعد كولونيالية، إثنوغرافية...)، بما توفره من فُهُوم أفضل له على مستويات صياغته وتشكله وحمولاته الإيديولوجية.

من باب الاقتراب من هذه الدراسات، نحلل ثلاث مقاربات مغربية للنص الرحلي، هي: خطاب الرحلة: الذاكرة وآليات إنتاج الدلالة لسعيد جبار (٢٠١٧)، تمثلات الشرق في السرّد الرحلي الألماني: دراسة تحليلية مقارنة لزهير سوكاح (٢٠٢٠)، كتب الرحلة بين الهوية الإثنوغرافية والحساسية الأدبية لمحمد شداد الحراق (٢٠٢٣)، منطلقين ممّا تُتيحه الإبستمولوجيا كعمل بعدي لتوصيف الدراسات والأبحاث، بُغية الحكم على قيمتها، لتقرير ما إذا كان بإمكانها ادعاء الاقتراب من المثل الأعلى لمعارف معينة ومبررة بشكل أصيل، وبصيغة أخرى بيان قيمة هذه الأعمال وحدودها.

الكلمات المفاتيح: النص الرحلي، الدراسات الأدبية، تعدد المقاربات، المفاهيم، الإبستمولوجيا، التوصيف.

تقديم

تُعـرّف الإبسـتمولوجيا بأنهـا دراسـة نقدية لمبـادئ وفرضيات ونتائج العلـوم المختلفة، تروم «تحديـد أصلهـا المنطقـي، وقيمتهـا، وأهميتهـا الموضوعية»[١]، وتهدف أساسـا إلى توصيف العلوم الموجـودة، من أجل الحكم عـلى قيمتها وعلى وجه التحديد لتقرير ما إذا كان بإمكانها زعْم الاقتراب مـن المثَل الأعـلى لمعـارف معيّنة ومبرّرة بشـكل أصيـل[٢]، وبعبارة أخـرى تدرس الإبسـتمولوجيا البحث العلمي وما ينتجه من معرفة علمية[٣].

وبمـا أن الدّراسـات الأدبيـة معرفـة يُنتجها باحثـون في الأدب حول نصوص أدبيـة أو قريبة من الأدب، في إطار مراكز بحث ومجلات ومؤلفات وفعاليـات متخصصة، أي أنها خطـاب علمي له مُنطلقاتـه وأهدافه وموضوعه ووسـائله[٤] أو على الأقل تسير على خطى العلم[٥]، فإنّ تراكم الدراسات الأدبيـة حـول النّصـوص الرّحليـة في العقديـن الأخيريـن بالمغرب باعتبارهـا معرفة، يفرض على الباحثين وقفة تأملية لدراسـتها ومناقشـتها، من منطلق إبسـتمولوجي، تمثلاً لـكل ما تفرضه كل إبسـتمولوجيا عامة أو قطاعيـة[٦]، في ضوء قواعد ومبادئ يحصل بسـببها إنتاج معرفة قابلة للفهم والإدراك[٧]؛ وهو أمر بات ضرورياً ومفيداً بلا شك، أمام تعـدد المقاربـات وتزامن الإبسـتميات التي تحكُم كل واحدة منها، في تفاعل مع التحوّلات التي تشهدها الدراسات الأدبية في الغرب[٨] من جهة، وفي ظل غياب قطائع إبستمولوجية في الثقافة العربية من جهة أخرى.

يندرج هذا المقال في إطار إبستمولوجية نوعية تجعـل موضوعها هو الدراسـات الأدبية، بتحليله الإبسـتمولوجي باعتبـاره نشـاطاً تأمليـاً بعدياً، لثلاثـة دراسـات موضوعها النصـوص الرحلية، هي: خطـاب الرحلة: الذاكرة وآليات إنتاج الدلالة لسـعيد جبار (٢٠١٧)[٩]، تمثلات الشرق في السرّد الرحـلي الألماني : دراسـة تحليليـة مقارنة لزهير سـوكاح[١٠] (٢٠٢٠)، كتـب الرحلـة بـين الهوية الاثنوغرافيـة والحساسـية الأدبيـة لمحمد شـداد الحـراق[١١] (٢٠٢٣)، ويهـدف المقال إلى الكشـف عـن الأطر المرجعيـة التي انطلق منهـا الباحثون الثلاثة ويتحركون داخلها ويتوسّلون بها لتحليل

---

(1) Antoinette VIRIEUX – REYMOND, L'Épistémologie (Paris : P.U.F. (SUP), 1966), 3.

(2) Léna Soler, Introduction à l'épistémologie (éditions Ellipses, 2000), 9.

(3) Mario BUNGE, L'épistémologie (Paris : Maloine, 1983), 13.

(٤) عبـد الواحد المرابط، «تحولات النقد وآليات نقد النقد، قـراءة في مـشروع الدكتور حميـد لحمداني» ضمن كتـاب في الأدب والنقـد والترجمة قـراءات في تجربة د. حميـد لحمداني تنسـيق: محمد مسـاعدي وعبد الواحد مرابط ورضوان الخياطي (تازة: منشـورات شـعبة الآداب واللغـات والتواصل بالكليـة المتعددة التخصصات بتازة، ٢٠١٥)، ١٦٢.

(٥) محمـد الدغمومي، نقـد النقد وتنظـير النقد العربي المعـاصر (الرباط: منشـورات كليـة الآداب والعلوم الإنسـانية الرباط، سلسلة رسـائل وأطروحات رقم ٤٤، ١٩٩٩)، ٥١.

(٦) المرجعُ نَفسُه، ٥٠.

(٧) المرجعُ نَفسُه، ١٢.

(٨) المرجعُ نَفسُه، ٣٣٣.

(٩) سعيد جبار، خطاب الرحلة الذاكرة وآليات إنتاج الدلالة (القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، ٢٠١٧).

(١٠) زهـير سـوكاح، تمثـلات الـشرق في الـسّرد الرحلي الألمانـي دراسـة تحليليـة مقارنـة (أبو ظبـي: دار السّويدي للنشر والتوزيع/ بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٢٠).

(١١) محمـد شـدّاد الحـراق، كتـب الرحلة بـين الهوية الاتنوغرافية والحساسـية الأدبية قراءة في الرياحين الوردية في الرحلة المراكشـية لمحمد المكي الناصري الدرعي (طنجة: سليكي أخوين، ٢٠٢٣).

المتون التي اختاروها للدراسة ومدى ملاءمتها لها، ويتوقّف عند اشتغالهم المفاهيمي، ويكشف عن قيمة دراساتهم وحدودها.

١- المرجعيات المُنطلق وملاءمة المتن

لا يمكن الحديث عن دراسات أدبية دون الإشارة إلى مرجعياتها، بحُكم كونها تشكّل منطلقَها وأساسها الموجّه من جهة، ومن جهة أخرى نظراً لكونها خلفيات معرفية يتوسّل بها الباحث في تعامله مع المتون التي اختارها للدراسة على أساس أن المرجعيات كيانات معرفية مؤطرة تمنح الخطاب انتسابَه إلى المعرفة، وتخصص موقعَه فيها وقُدْرَته على توظيفها.[١٢]

تسْمح المقاربة الإبستمولوجية، باعتبارها خطاباً تأملياً ونقدياً للمعرفة العلمية وأسسها وتتبّع أشكال تحقّقاتها وتُبرز التزامها بقواعد العلم، بالوقوف على المرجعيات التي انطلق منها كل باحث، وتتساءل عن مدى ملاءمتها للمتْن وعلاقتها بالنتائج التي توصّل إليها الباحث.

١-١- المرجعية التداولية

تبنّى سعيد جبار مرجعية تداولية «تهدف إعادة تأسيس تصور عام لخطاب الرحلة، استنادا على بعض المفاهيم التداولية التي تعتبر كل خطاب أو ملفوظ تواصلاً بين مرسل ومتلق، يهدف الأول من خلاله التأثير في الثاني سواء معرفيا أو وجدانيا. ونحن نعتبر أن الرحلة كخطاب تعيد تشكيل تجربة ذاتية من خلال وعي جديد، وفي زمن مغاير لزمن القيام بالرحلة هي فعل قول تداولي مشحون بإشارات معرفية متعددة، يقصد الرحالة – السّارد من خلالها توجيه القارئ – المتلقي في تلقيه ملفوظ الرحلة، وتزويده بمعرفة خاصة تلقاها الرحالة – الشخصية تدريجيا وهو يتابع مسارات رحلته عبر الزمن والفضاء، ويعيد تأمل هذه المسارات وهو يستحضرها ذهنيا عبر الذاكرة في زمن لاحق.»[١٣] كل ذلك في إطار تداولي يشرك القارئ ويجعله يتفاعل مع الرحالة، يضع من خلاله سعيد جبار فرضية تمكننا من قراءة خطاب الرحلة، يقول: «يمكن أن نضع تصورا أوليا ولو نسبيا يمكننا من وضع فرضيات لقراءة خطاب الرحلة في مستوياته المختلفة. فهو خطاب يتجاوز التسجيل التوثيقي للأحداث والوقائع، كما يتجاوز الوصف السّاذج البريء للفضاءات والشخصيات، بل هو خطاب مبنين بطريقة نسقية خاصة تهدف تأسيس معرفة متنامية بتنامي مسارات الرحلة تصيب موقعها في ذهن المتلقي ووجدانه، وتهدف إلى أن تجعل المتلقي يشارك الرحالة السّارد نفس الإحساس والتصور، ويتفاعل مع معرفته. ويشحن الخطاب بآليات مختلفة تمكن المتلقي من المرور من المستوى الإخباري المرتبط بالدلالة الطبيعية للخطاب إلى المستوى التواصلي المتعلق بدلالته غير الطبيعية. فهو إذا خطاب ذاتي موجه بمقصدية محدّدة، وحامل لمعرفَة خاصة.»[١٤]

وعن دواعي الانفتاح على المرجعية التداولية يؤكد سعيد جبار أنه وجد فيها متنفساً لتوسيع المُقاربة السّردية[١٥] ينطلق فيها من فرضية ترى: «أن النّص الرحلي ليس نصا توثيقيا تسجيليا فقط، بل هو نص ينتج معرفة ترتبط بزمن مغاير لزمن الرحلة وهو زمن تلفيظ الرحلة، ويعبّر عن

(١٢) محمد الدغمومي، نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر، ٨٩.

(١٣) سعيد جبار، خطاب الرحلة الذاكرة وآليات إنتاج الدلالة، ٢٣.

(١٤) المرجعُ نَفسُه، ٢٨-٢٩.

(١٥) المرجعُ نَفسُه، ٨.

معتقدات تكونت لدى الرحالة – المؤلف وهو يعيد استحضار وقائع الرحلة وينظمها خطابيا، وبالتالي تتحكم هذه المعرفة في سيرورة السّرد من جهة، وفي التفاعلات الخطابية للخطاب العام من جهة ثانية.»[١٦]

وذلك من خلال سؤال مركزي موجه، وهو كيف يمكن أن نعيد تأسيس العلاقة التي تربط بين فعل الرحلة التجريبي الذي قام به الرحالة على مدى زمني معين وبين تلفيظ هذا الفعل؟ أو بين فعل الرحلة الواقعي وفعل تخطيبها؟

وقد اختار سعيد جبار لاختبار هذه الفرضية ثلاثة نصوص رحلة مغربية من سياقات وقرون مختلفة، وهي النفحة المسكية في السّفارة التركية لعلي بن محمد التمكروتي، والرحلة العياشية ماء الموائد لأبي سالم العياشي والرحلة الأوربية لمحمد الحجوي.

وبعْد تحليل هذه النصوص الثلاث وفْق السّؤال المنطلق، مع إبراز تباين مقصديات مؤلفيها، انتهى سعيد جبار إلى النتيجة التالية: «الخطاب الرّحلي هو بالفِعْل خطاب مكثّف مشحُون بالدلالات المختلفة، وأن الرحالة- المؤلف وهو يستحضر الأحداث والوقائع لا يلتزم الموضوعية المطلقة في الإخبار والسرد، فهو من جهة يعتمد انتقائية خاصة يستحضر من خلالها وقائع ويغيب أخرى بقصدية واعية حتى يتمكن من تنظيم خطابه في نسقية دقيقة تؤشر على الدلالة التي يرمي إلى تمريرها للمتلقي، ومن جهة أخرى يدعم هذه الانتقائية بتدخلات سافرة عبر خطاب التقرير من أجل التفسير والتعليق، وهو خطاب يساهم بشكل كبير في توجيه القراءة.»[١٧] أي أنه خطاب تتفاعل فيه أنظمة خطابية متعدّدة تشتغل على شكل نسق منسجم، يعمل على إنتاج دلالة خاصة لها ارتباط بمقصديات الرحالة، بإسهام كبير من الذاكرة كقوة لاستحضار وقائع الرحلة وتلفيظها وتضفي عليها وعيا جديدا مرتبطا بحاضر الخطاب.

يبدو أن المتن الذي اختاره سعيد جبار لاختبار فرضيته العلمية التي انطلق منها، ملائم للمرجعية التداولية التي أطر فيها دراسته، وتميز هذا المتن بتنوعه على مستوى الزمن (التمكروتي في القرن السّادس عشر، والعياشي في القرن السّابع عشر، والحجوي في مطلع القرن العشرين) واختلاف وجهات الرحالين (السفارة إلى تركيا العثمانية بالنسبة للتمكروتي، وأداء مناسك الحج عند العياشي، وفرنسا وإنجلترا بالنسبة للحجوي) ومقاصدهم من تلفيظها (فالتمكروتي عمل على تخطيب رحلته انطلاقا من دافع ذاتي يروم تقديم معرفة بمجموعة من القضايا عن فضاءات الرحلة باستحضار طبيعتها وخصوصيات أهلها وتاريخها، أما العياشي فقد سعى إلى تقديم معرفة موسوعية تستوعب معارف وخطابات متعددة، بينما رام الحجوي إبراز مميزات الآخر الأوربي وفي الآن ذاته صورة الأنا منعكسة فيه).

لكن الانسياق وراء التعميم الذي تفرضه النظرية، والذي ينظر إلى النصوص الرّحلية من نفس زاوية النظر إلى نصوص السّيرة الذاتية، جعل سعيد جبار يغفل شكلين مهمين من النّصوص الرّحلية وهما تلك التي كتبت على شكل رسائل بالتزامن مع فعل الرحلة، وتلك النصوص التي كتبت على شكل تقارير أثناء فعل السّفر، وعُرضت مباشرة بعد عودة الرحالة من مهمته الاستكشافية، لا وِفق مقصديته، وإنما وفق مقاصد الجهات التي كانت وراء بعثته، وهو ما يؤكد أن المدة الزمنية

(١٦) المرجعُ نَفسُه، ٨.
(١٧) المرجعُ نَفسُه، ١٨٩.

الفاصلة بين فعل السّفر وتلفيظه لا تكون دائما طويلة، تختلف من رحالة إلى آخر ومن اختيار القوالب التي يُفرغ فيها الرّحالون تجاربهم، الأمر الذي يؤكد أن النّصوص الرّحلية تصعب قولبتها في تصور نظري عام يشملها، نظراً لطابعها المتحرر الذي يفرض تعدداً وتنوعاً في ظروف وأشكال تلفيظها.

١-٢- المرجعية ما بعد الكولونيالية

اختار زهير سوكاح تأطير دراسته ضمن مرجعية ما بعد كولونيالية تبنّت مفهوم الاستشراق كما أسّس له إدوارد سعيد، فرأى في النص الرّحلي من أهم وسائط الاستشراق، باعتباره خطابا غربيا حول الشرق، يقول: «من هذا المنطلق يمكن اعتبار أدب الرحلة عن الشرق من أهم الوسائط النصية للاستشراق، ذلك أنها لا تبرز ثنائية «الشرق» ضد «الغرب» فحسب، بل إنها تشدد على التعارض التخيلي بين قطبين لا يلتقيان من منظورها الاستشراقي.»[١٨] لكن مع مراجعته بحكم أن إدوارد سعيد «استثنى النمط الاستشراقي الألماني من الظاهرة الاستشراقية الكولونيالية، معتبرا إياه، بالمقارنة مع النمط الاستشراقي الفرنكو- الإنجليزي، ذا طابع علمي وأكاديمي بالأساس.»[١٩] فاختار توسيع المفهوم ليشمل الاستشراق الألماني الذي استثناه إدوارد سعيد من مفهومه للاستشراق، ليؤكد أن الاستشراق الألماني يشمله المفهوم كما تمثله إدوارد سعيد. يقول زهير سوكاح: «تفترض هاته الدراسة، بخلاف فرضية إدوارد سعيد الشهيرة، أن الاستشراق الألماني لم يكن يوما من الأيام أقل إمبريالية وهيمنة من بقية الأنماط الاستشراقية الغربية.»[٢٠] ودليله على ذلك أن «تحليل نصوص رحلية مختارة من القرن التاسع عشر تبرز الطبيعة المهيمنة لهذا النمط الاستشراقي بجلاء، بل[...] تعتبر هاته الدراسة أن الفكر الاستشراقي لا يزال مستمرا في الدول الناطقة بالألمانية حتى في عصر ما بعد الكولونيالية.»[٢١]

وكان الهدف من هذه الدراسة هو التأكد من فرضية «وجود تأثير فعلي للظاهرة الاستشراقية على التمثلات الكامنة والمواقف الظاهرة لهاته النصوص حول موضعها، وهو الشرق بصيغته العربية بالأساس. بالإضافة إلى هذا [...] الاستدلال إلى حد بعيد عن إمكانية وجود استمرارية استشراقية ضمن النصوص الرحلية الجديدة في تعاطيها مع «الشرق» الراهن.»[٢٢]

وللاستدلال على هذه الفرضية اعتمد زهير سوكاح تحليلا مقارنا لثلاثة نصوص رحلية من القرن التاسع عشر، وثلاثة نصوص أخرى من مطلع الألفية الثالثة. وهكذا اختار متناً رحلياً ألمانيا ينتمي إلى فترتين زمنيتين متباعدتين، مكونا من ثلاثة نصوص من القرن التاسع عشر الذي شكل أوج الاستشراق الأوربي، ولا سيما في النصف الثاني منه، وهي: الرحلات الشرقية للأمير بوكلر موسكاو (١٨٣٧) وإقامتي الأولى في المغرب لكيرهارد غولفز (١٨٦٥) ورحلة حجي إلى مكة لهاينريش فول ماتسان (١٨٦٥) وثلاثة نصوص من مطلع الألفية الثالثة، في سياق مكافحة الإرهاب واحتدام الصراع بين الشرق والغرب والذي جعل مفهوم الشرق كما يتمثله الغرب يظهر للسطح ويلبس لبوس الإرهاب وهي: المملكة العربية السّعودية. في البلاد المقدسة

(١٨) زهير سوكاح، تمثلات الشرق في السّرد الرحلي الألماني، دراسة تحليلية مقارنة، ٦١.
(١٩) المرجعُ نَفسُه، ١٧.
(٢٠) المرجعُ نَفسُه، ١٧.
(٢١) المرجعُ نَفسُه، ١٧.
(٢٢) المرجعُ نَفسُه، ٢٢.

للإسلام لكزيلا رامينغ ليوبولد (٢٠٠١) ورحلتي الشرقية لأندرياس بروفه (٢٠٠٥) ورحلات إلى الشرق لردولف هوفنباخ (٢٠١١)، والتي بيّن زهير سوكاح من خلالها أن النصوص الرحلية الألمانية لم تكن استثناء، بل كانت وسيلة من وسائل الخطاب الاستشراقي الغربي في تمثله للشرق.

وبعد تحليل هذه النصوص السّتة وفق فرضية توسيع مفهوم الاستشراق الذي وضعه إدوارد ليشمل الرحلات الألمانية في القرن التاسع، بل وسّعه ليشمل رحلات ألمانية ألفت في مطلع الألفية الثالثة، مبيناً كيف يواصل الخطاب الاستشراقي في جعل الشرق نقيض الغرب ويكيّف تمثيلاته له مع التّحولات التي يعرفها العالم، انتهى زهير سوكاح إلى النتائج التالية:

- رغم التنوع والاختلاف الحاصل في التّمثلات والصور حول الشرق في النصوص الثلاثة المختارة من القرن التاسع عشر إلا أنه أمكن استخراج عن طريق المقارنة بينها تمثلا نمطيا مشتركا يتكرر بشكل بارز عن الشرق «الإسلامي» بوصفه النقيض الحضاري «المتخلف» عن الوطن الألماني للرحالة ذي الخلفية الغربية والمسيحية؛

- في إطار هذه النزعة المركزية الأوروبية الواضحة تم في هاته النصوص الرّحلية الألمانية تبرير الاستعمار الأوروبي في المنطقة بوصفه عملاً حضارياً من الطرف «الغربي»، منْ أجْل انتشال الطّرف «الشّرقي» الغارق في «تخلّفه» الحضري، لم تختلف النظرة الغربية الحديثة للشرق والمستخرجة من النصوص الرحلية المعاصرة، أي في القرن الحادي والعشرين، عن مثيلتها في نصوص القرن التاسع عشر، حيث يظهر هنا «الشرق» بوصف صورة نمطية وأداة إيديولوجية في آن واحد: فهي صورة عالم «متخلف» يقع على طرف نقيض من العالم الأوروبي المتحضر والمتقدم، وهي أيضا أداة يستطيع من خلالها الرحالة ومعه القارئ الألماني تعريف ذاته «المتطورة» عبر مرآة الشرق، الذي أريد له هنا لعب دور المنعزل عن أي تطور حضاري وإنساني حتى في الألفية الثالثة؛

- حلّت في النصوص الرّحلية الحديثة، عوضا عن النظرة الاستعمارية القديمة للشرق، نظرة توجّسية بل وتخويفية من كون الشرق الحديث أضحى مرتعا لإرهاب العالم «المتحضر»».[٢٣]

على الرغم من تأكيد الباحث على استمرار النظرة الاستشراقية التي تدين الشرق وتجعله نقيض الغرب في الكثير من النصوص الرحلية الألمانية، فإن هذا لا يمنع من وجود استثناءات تشذّ عن هذا المسعى التّعميمي، مثل نص مقهى موكا: تأملات في أكادير[٢٤] لراينهارد كيفر الذي حاول التأمل في ما يشاهد ويلتقط وما يسمع حوله من أماكن وأحداث وأفعال في الحياة والموت والألم والسعادة والفرح وغيرها من القضايا الميتافيزيقية المستعصية التي تتجاوز ثنائية الشرق والغرب وتعانق قضايا إنسانية.

١-٣- المرجعية الإثنوغرافية الأدبية

يفصح عنوان كتاب محمد شداد الحراق عن مرجعية مزدوجة تجمع بين الإثنوغرافيا والدراسة الأدبية، والذي عبر عنها قائلا: «ومع ذلك جاءت أغلب الرحلات حاملة لإرهاصات مشروع علمي متكامل، له عمقه المعرفي، وله أبعاده الإنسانية والحضارية والجمالية، تتقاطع فيه المادة الإثنوغرافية مع باقي

(٢٣) المرجعُ نَفسُه، ١٠٩-١١٠.
(٢٤) راينهاردكيفر، مقهى موكا تأملات في أكادير، ترجمة محمد خلوق (الدار البيضاء: دار توبقال، ٢٠١٣).

المواد الأدبية...»[٢٥]

يبدو هذا المنطلق ملائماً لطبيعة النّص الرحلي المفتوح على مجموعة من الخطابات المعرفية والأدبية، وقد اختار الباحث رحلة داخلية مغربية وهي الرياحين الوردية في الرحلة المراكشية لمحمد المكي الناصري الدرعي، التي حققت فعلا هذا التداخل بين العديد من الخطابات المعرفية التي تحتويها وبين خصوصياتها الأدبية. يقول: «حاولت في هذا العمل التواصل مع أحد المتون الرحلية المغربية، الذي يعد نموذجا إبداعيا أصيلا في هذا المجال، ويمتلك كل خصائص العمل العلمي المنفتح على خطابات معرفية عديدة، ويقدم خدمة جليلة للدراسات العلمية والأدبية السّاعية إلى كشف بعض خبايا المجتمع المغربي، ورصد بعض ظواهره الثقافية والاجتماعية والدينية والفنية. وقد وقع اختياري على متن «الرياحين الوردية في الرحلة المراكشية" باعتباره من المدونات الرحلية الداخلية القليلة في تراثنا الأدبي. إذ اهتم فيها صاحبها بكشف زوايا مظلمة من المجتمع المغربي التي تغافل عن تدوينها وروايتها العديد من المؤرخين والعلماء. وهو نموذج فريد لرحلة متكاملة في شكلها وبنائها ومضامينها، يمكن اعتبارها مدونة جامعة لفنون الأدب والمعرفة، وغنية بصور ناطقة وبشهادات صادحة حول الواقع الثقافي والجغرافي والديني، وحول خصوصية العقل المغربي خلال القرن الثاني عشر الهجري.»[٢٦]

وعلى الرغم من الطابع الإشكالي لعنوان الكتاب إلا أن الباحث لم يطرح أي إشكالية في مقدمته، واكتفى بتقديم مجموعة من التعريفات (للرحلة والرحالة) حاول من خلالها تحديد خصوصية النص الرّحلي الذي يجمع في نظره بين الجانب الإثنوغرافي والجانب الأدبي، وبناء على هذه الازدواجية بنى كتابه، والتي يمكن اعتبارها فرضية للاشتغال داخل الكتاب.

اعتمد محمد شداد الحراق في معالجته لهذا المتن تحليلا تيماتيكيا؛ كشف في الفصل الأول عن حضور مجموعة من التيمات التي اعتبرها الباحث تنتمي إلى اهتمامات الاتنوغرافيا، وتمثلت في نظره في «مجموعة من المضامين والوثائق العلمية والمعرفية المتنوعة التي تشرح الواقع المغربي من مختلف أبعاده الثقافية والجغرافية والدينية والتاريخية والاجتماعية.»[٢٧] وفي الفصل الثاني كشف عن مكونات أخرى اعتبرها تؤكد على أدبية النص الرحلي «وخصوصا خطاباتها النقدية والشعرية والسردية، من خلال تحديد مظاهر الأدبية وآليات الكتابة الفنية، وبيان التقنيات السّردية المعتمدة في بنائها الفني.»[٢٨]

وخلص الباحث إلى جملة من النتائج منها:

- الرياحين الوردية وثيقة إثنوغرافية توفر لعلوم الإنسان مادة معرفية ومعطيات غنية ومتنوعة، تساعد الباحث في استجلاء الكثير من القضايا الاجتماعية والدينية والثقافية، وتقدم تشريحا دقيقا للبنية السّائدة في المجتمع المغربي خلال القرن الهجري الثاني عشر؛

- الرياحين الوردية نص إبداعي يحوي كل عناصر الكتابة السّردية، بأسلوب مشوّق وبأدوات فنية متنوعة، تتقاطع فيه الخطابات وتنصهر في لحمة واندماج لبناء الكيان الفنّي لهذا العمل

(٢٥) محمد شداد الحراق، كتب الرحلة بين الهوية الإثنوغرافية والحساسية الأدبية قراءة في الرياحين الوردية في الرحلة المراكشية لمحمد المكي الناصري الدرعي، ٧-٨.
(٢٦) المرجعُ نَفسُه، ٨.
(٢٧) المرجعُ نَفسُه، ٩.
(٢٨) المرجعُ نَفسُه، ٩.

الأدبي؛

- الرياحين الوردية خزانة لفنون الأدب الرفيع ومستودع للأخبار والأشعار والطرائف والاستطرادات، تتضمن زادا أدبيا وفيرا ونصوصا شعرية نادرة.[٢٩]

ما يُلاحَظ على عمل شداد الحراق مقارنة مع العملين السّابقين، هو أنه اكتفى بنص واحد لاختبار التصوّر الذي انطلق منه، والمتمثل في الطبيعة المزدوجة للنّصوص الرحلية التي تجمع بين الحسّ الاتنوغرافي والمسْعى الأدبي، هذا التصور لا يمكن تعميمه على كل النصوص الرحلية، نظرا لتنوع أشكال تلفيظها، فهناك نصوص رحلية أدبية خالصة، وأخرى إثنوغرافية خالصة، وأخرى ينعدم فيها الأدبي والاتنوغرافيا.

بعْد قراءتنا للكُتب الثلاثة قيْد هذه الدراسة، نُلاحظ اختلافها الواضح في المرجعيات التي فرضت تصوراً خاصاً للنّص الرحلي لكل باحث، تفاعلاً مع المرجعية الخاصة التي انطلق منها والإشكالية والفرضية والأهداف التي حكمته.

٢- الاشتغال على المفاهيم

تعدّ المفاهيم عنصرا أساسيا في الدراسات الأدبية، بحكم أنها هي التي تكوّن وجود المعرفة[٣٠]، وتتميز المفاهيم بكونها ذات طابع تنظيمي، ترتبط بحقل علمي، وتُشكل نظرياً ولكنها تؤول إلى التطبيق العملي. وهي نتيجة مجهود للعلماء، يتبلور على شكل تراكم معرفي عبر التاريخ، وهي أساس كل بناء معرفي، ودون المفاهيم تكون المعرفة سطحية.[٣١] بل هي نظام تفكير[٣٢] لذلك يعدّ الاشتغال الإبستمولوجي على المفاهيم ضرورة ملحة.

نلاحظ تباينا واضحا في الكتب الثلاثة بخصوص مفهوم النص الرحلي، وقد تأثر هذا بالمرجعية المنطلق منها من جهة وكذلك الاستراتيجية التي يروم كل باحث تحقيقها من خلال دراسته. ولمعالجة اشتغال حضور المفاهيم في الكتب الثلاثة، ارتأينا الإجابة على السّؤالين التاليين: كيف تشكلت المفاهيم على المستوى النظري؟ وكيف تم توظيفها على مستوى التطبيق العملي في تحليل النصوص الرحلية التي شكلت متن هذه الدراسات؟

٢-١- نحو مفاهيم جديدة لمقاربة النص الرحلية

حاول سعيد جبار، انطلاقا من الهدف العام الذي تحكم في كتابه، والمتمثل في «إعادة تأسيس تصور عام لخطاب الرحلة، استنادا على بعض المفاهيم التداولية التي تعتبر كل خطاب أو ملفوظ تواصلا بين مرسل ومتلق، يهدف الأول إلى التأثير في الثاني سواء معرفيا أو وجدانيا.»[٣٣] أن ينظر إلى مفهوم النص الرحلي انطلاقا من عمليتي إنتاجه وتداوله، لذلك نجده يَعتبر الرحلة خطابا يؤسس حقيقة معينة، يلتمسها الرحالة في تجربته الواقعية، ويعمل على إعادة بنائها في ملفوظ، يضمن الانسجام

(٢٩) محمد شداد الحراق، كتب الرحلة بين الهوية الاتنوغرافية والحساسية الأدبية، قراءة في الرياحين الوردية في الرحلة المراكشية لمحمد المكي الناصري الدرعي، ٩٨.

(٣٠) محمد الدغمومي، نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر، ٢٠.

(٣١) بوشعيب السّاوري، «إشكالية الانتقال من المفهوم إلى المصطلح» ضمن مجلة مقاليد، العدد الثاني، (ديسمبر ٢٠١١): ٣٤.

(٣٢) محمد الدغمومي، نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر، ٢١.

(٣٣) سعيد جبار، خطاب الرحلة الذاكرة وآليات إنتاج الدلالة، ٢٣.

المطلوب والموجهـات الضرورية التي تجعل المتلقي قادرا على فك شـيفراتها وإدراكها في سياق تواصلي خاص.[٣٤] ويتسـاءل سـعيد جبار: كيـف يمكن أن نعيد تأسيس هذه العلاقة الرابطة بين فعل الرحلة الواقعي وفعل تخطيبها؟[٣٥]

وجوابـاً عن هذا السّـؤال نجح سـعيد جبار في التمييز بين مفهومين للرحلة؛ الرحلة الفعل (السفر) والرحلة الملفوظ (الكتابة) مؤكداً على وجود مسافة زمنية فاصلة بينهمـا، تطول أو تقصر، وهي تمثل المدى الزمني الذي يتمثل فيه الرحالة السّارد وقائع رحلته ذهنياً، وهو يسـتعيدها عبر فعل التذكر، من أجل تقديمها في ملفوظ مُنسجم قابل للتلقي، ليؤكد سـعيد جبار أن فعْل التذكر هو وسـيط بين الواقع التجريبـيللرحلـةوملفوظهـا.[٣٦]

الأوّل: فعـل تلقائـي يتحقق من خـلال التنقل في الأماكـن، عبْر أزمنـة مُتلاحقة؛ وهـذا الفعل غير موجه توجيهـا ذاتيا، ينفعل الرحالـة مع المؤثرات المحيطة بـه، دون أن تكون له القدرة على تحويلها أو توجيهها.[٣٧]

الثّانـي: تخطيـب للرحلة، هو فعـل من درجة ثانيـة، ويتمّ عـبر الإدراك الذاتي الذي تنتجه ذاكرة الرحالـة، وهو يسـتعيد أحداث الرحلـة ووقائعها، لكـي يبنيها في ملفـوظ خاص، الأمر الـذي يجعل الرحالة يقوم بتحويل وتغيير وقائع الرحلة.[٣٨]

وأكد سـعيد جبار أن العلاقة بين هذين الفعلين يتم تجسـيرها بواسطة مفهوم الذاكرة الذي اعتبره وسـيطاً بين فعـل الرحلة وفعل تخطيبهـا، مؤكدا أن الذاكرة تقـوم بثلاثة أفعال تمكّن سـعيد جبار من نحت مفاهيم لها، انسـجاما مع الطرح التداولي الذي قارب من خلاله النص الرحلي، وهي:

التحفيظ: يتم بشكل مواز لفعل الرحلة، إذ تقوم الذاكرة بتخزين ما التقطته عبر الحواس من صور ووقائع من أجل استحضارها لاحقا[٣٩].

إعـادة الإنتـاج: تتميز باسـترجاع وقائع الزمن الماضي عبر تجريد الأحداث من طبيعتها التجريبية، لتتحـول إلى صـور ذهنيـة يتـم تمثّلها في سـياق مخالف لسـياق وقوعها، ويرسلها الرحالة في قالب لغوي قابل للتمثل من قِبل المتلقي. في إعادة الإنتاج يتمّ توجيه الأحداث والوقائع وفق أحاسيس جديدة ترتبط بالحاضر ولا علاقة لها بأحاسـيس الرحالة زمن وقوع الرحلة[٤٠].

التعـرف: يحيل على قدرة الذاكـرة على التمييز بين وقائـع المـاضي والحاضر، ويضع حـدودا بين الزمنين، فتعيد إنتاج الماضي بعيداً عن أي إكراهات نفسية أو اجتماعية.[٤١]

ويسـتنتج الكاتب أن السّرد الرحلي ينتج الماضي ولا يقتصر على إنتاجه فقط، بل هو يجيب عن أسئلة مرتبطة بالحاضر. هذا دفعه إلى الاستعانة بمفهوم آخـر متعلـق بصدقيـة الوقائع التي يسـتحضرها الرحالة عبر الذاكرة. ويؤكد سعيد جبار أن صدقية الوقائع التي يستحضرها الرحالة عبر الذاكرة رهينة بالمقصدية التي يوجه بها الرحالة رحلته، وهو ينقل الوقائع خطابياً. ويؤكد الكاتب أن الخطاب الرحلي قائم عـلى الإخبار المتمحور حول الـذات، فالرّحالة الذي قام بفعل الرّحلة في زمن سابق يتعهد بالإخبار عنْهـا وتدْوينهـا وتبليغهـا للمتلقـي، فيوهمه بأن

(٣٤) المرجعُ نَفسُه، ١١.
(٣٥) المرجعُ نَفسُه، ١٢.
(٣٦) المرجعُ نَفسُه، ١٢-١٣.
(٣٧) المرجعُ نَفسُه، ١٣.
(٣٨) المرجعُ نَفسُه، ١٣-١٤.
(٣٩) المرجعُ نَفسُه، ١٦.
(٤٠) المرجعُ نَفسُه.
(٤١) المرجعُ نَفسُه، ١٧.

خطابه يلتزم الصدق والنزاهة، ويتأسس التواصل بين المرسل والمرسل إليه على أساس هذا التعاقد، إذ يتوخى الرّحالة تمرير الحقيقة التي يبنيها لمتلقي خطابه، ويسعى هذا الأخير إلى بناء هذه الحقيقة وإدراك مقاصدها.[٤٢]

لكن فعْل التذكر لا يستطيع استرجاع كل شيء، إذ يعمل وعي الرحالة الحاضر على وضْع خطوط حمر لا يُمكن تجاوزها في البوح والاعتراف، إذ يُعْلن ويُضْمر ويُخفي. فيتفاعل التذكر بالنسيان من أجل رسم حقيقة أدبية رحلية خاصة، ويوهم مخاطبه بأنه يرسم الحقيقة الفعلية التي امتلكها وهو يقوم بفعل الرحلة.[٤٣]

ثم يتساءل سعيد جبار أي علاقة تربط الصدق بالمقصدية في خطاب الرحلة؟ وما طبيعة الصدق الذي تقصده هنا؟ عادة ما يكون الخطاب رهينا بأن يقول المتكلم الحقيقة التي يمتلكها، والرحالة السّارد يمرر خبرا أو أخبارا تتعلق بذاته وفعله وسلوكاته، وهو ينتقل عبر الفضاءات في اتجاه هدف معين، وعبْر هذه التجارب يؤسّس الرحالة مفهوماً خاصّاً للحقيقة، يرتبط بالواقع وبالمُحيط وبالسّياق العام الذي يتحرّك فيه. لكن هذه الحقيقة لا تكتمل إلا بتجميع الأخبار المختلفة التي ينوي الرحالة إرسالها للمتلقي، وترتهن بالوعي الحاضر الذي يُعيد من خلاله استرجاع الزّمن الماضي والتوليف بين أحداثه ووقائعه.[٤٤]

يُخبر الرّحالة بما يعتقد أنه صادق لضمان جسر التواصل بينه وبين المخاطب من أجل تحقيق مقاصد ملفوظه، ولهذا يستنتج سعيد جبار أن مقصدية الخطاب هي النواة التي توجه ملفوظ الرحلة، وانسجام خطابها رهين بتحقيق هذه المقصدية الإخبارية التواصلية المتعلقة بالمعرفة أو مجموع المعارف التي يرغب المتكلم في تمريريها لمخاطبه وإقناعه بها.[٤٥]

وقد استعان سعيد جبار بتمييز سبيربر وويلسن بين مستويين للمقصدية، وهما:

- المقصدية الإخبارية: ما يقصده المتكلّم من حمل مخاطبه على معرفة معلومة معينة.

- المقصدية التواصلية: ما يقصده المتكلّم من حمل مُخاطبه على معرفة مقصده الإخباري[٤٦].

٢-٢- توسيع المفهوم

اشتغل زهير سوكاح على مفهومين مركزيين، في كتابه وهما الاستشراق والرحلة، إذ خصص لكل واحد منهما مبحثا خاصا، وقد عمل جاهدا على تحديدهما، قبل أن يتخذهما مفهومين إجرائيين في المبحث الثالث.

اختار زهير سوكاح في دراسته تبنّي مفهوم الاستشراق كما صاغه إدوارد سعيد، وبعد أن بسط المفهوم كما عرضه إدوارد سعيد من خلال:

- بوصفه مجموعة من الخطابات، فهو خطاب عن الشرق، وخطاب عن الذات الغربية وخطاب هيمنة، والارتباط بين هذه الخطابات هو ما يطلق عليه إدوارد سعيد الاستشراق.[٤٧]

- تمظهراته: انطلاقا من زاوية تاريخا كشف عن ثلاثة أنماط للاستشراق وهي: الاستشراق الكامن والاستشراق الظاهر والاستشراق الحديث.[٤٨]

---

(٤٢) المرجعُ نَفسُه، ١٩.
(٤٣) المرجعُ نَفسُه، ١٩-٢٠.
(٤٤) المرجعُ نَفسُه، ٢٠-٢١.
(٤٥) المرجعُ نَفسُه، ٢٢.
(٤٦) المرجعُ نَفسُه، ٢٣.
(٤٧) زهير سوكاح، تمثلات الشرق في السّرد الرحلي الألماني دراسة تحليلية مقارنة، ٢٧-٢٨.
(٤٨) المرجعُ نَفسُه، ٣٤.

- تيماتــه: اختار الباحــث تناول هــذه النقطة بالكشــف عن أهم التمثلات والتصورات، استخداما في الممارسات الاستشراقية قديمها وحديثها، وتتمثل في التهديد الشرقــي واللاعقلانية الشرقية والتخلف الشرقي.[٤٩]

وقــد عمــل عــلى شرح كل مفهــوم عــلى حدة، مستعينا بأمثلة من النصوص الرحلية التي اختارها متنا لدراسته، كشف عن أصوله المعرفية والمنهجية.

ثــم انتقل زهير ســوكاح إلى الجدل الذي طرحه مفهــوم الاســتشراق والنقد الذي وجه لــه في العالم العربــي من لدن صادق جــلال العظم من خلال ما ســماه الاســتشراق المعكوس، أي أنه نظرة شرقية عن الغرب ذاتــه، مؤكدا أن ثنائيــة الشرق والغرب موجــودة في الخطــاب العربي حول الغــرب،[٥٠] كما تعرّض للنّقد من قبل الألمانية أندريا يولاشــيك التي أكــدت بدورهــا أن الخطــاب العربي الإســلامي في نظرته للغرب ينتج بدوره موقفا مشوها عن الغرب، انطلاقــاً من معايــير الثقافة العربية الإســلامية.[٥١] ويــرد عليهــا الباحث زهير ســوكاح بــأن المنظور العربــي عن الغرب ليس ذا طبيعة مهيمنة، وهو ما يجعلــه مختلفا كليا عن الاســتشراق الغربي،[٥٢] كما لاحــظ عليها إغفالهــا التقســيم التاريخي للظاهرة الاستشراقية الغربية بوصفها نظرة غربية متجددة وقابلة للتحــول،[٥٣] وهو ما جعلــه مفهوما تطبيقيا في عــدة مجــالات تتجــاوز الأدب إلى مجموعــة من التحققــات الثقافيــة في كثير من مراكــز البحث في ألمانيــا وغيرها في مجموعة مــن القضايا من أبرزها العنصرية.[٥٤]

هكذا اعتمد زهير سوكاح مفهوم الاستشراق مع إدوارد ســعيد، مع نقده ومحــاورة الانتقادات التي وجهت له، وعمل على توسيعه انطلاقا من مسوغات داخلية يســمح بها المفهوم نفسه، والمتمثلة في بعده التاريخــي غــير الثابــت والمتحول، فجعله يشــمل النّصــوص الرحليــة الألمانيــة إلى الــشرق في القرن التاسع عشر التي استبعدها إدوارد سعيد، بل أكثر من ذلك وسّــع المفهوم ليشــمل النصوص الرّحلية الألمانية المعاصرة على الشرق، لأن الاستشراق ظاهرة متعاليــة على الزمن، وبالتالي فهو ما يزال مســتمرا حتــى بعــد تفكيــك الاســتعمار في المجــال اللغوي والثقافي الألماني.[٥٥]

وتبنــى مفهوما وظيفيا للنص الرّحلي متمثّلا في كون النــص الرحلي أداة، إلى جانــب أدوات أخرى، توسّل بها الاســتشراق الغربي كوسيط نصي ملائم لخطابــه الاســتشراقي ومواكــب لــه عــلى مراحل تطــوره، في تمثــل الشرق، لذلــك كانــت الرحلة في نظر إدوارد ســعيد أهم الوسائط التي كانت بحوزة الاســتشراق الأوربــي، وبخاصــة في القرن التاســع عشر.[٥٦] وبما أن الباحث ســعى إلى توســيع مفهوم الاســتشراق ليشمل الاســتشراق الألماني، فقد اختار الرحلات الألمانية كمتن لدراســته، مؤكــدا أنه «عند أخذ الظاهرة الاســتشراقية بعين الاعتبار وبالأخصّ مع التّركيز على خاصية «تعاليها عن الزمن» فيبدو أن النّصــوص الرّحلية الألمانية حــول الشرق في كل من القرنين التاسع عشر والحادي والعشرين مرورا بالقــرن العشريــن، لا تصــف، من كونها وســائط نصية للاســتشراق، تلك الغيرية «الشرقية» بنعوتها

(٤٩) المرجعُ نَفسُه، ٣٩-٤٦.
(٥٠) المرجعُ نَفسُه، ٤٧.
(٥١) المرجعُ نَفسُه، ٤٨.
(٥٢) المرجعُ نَفسُه، ٤٨.
(٥٣) المرجعُ نَفسُه، ٤٩-٥٠.
(٥٤) المرجعُ نَفسُه، ٥٠-٥٢.
(٥٥) المرجعُ نَفسُه، ٥٨.
(٥٦) المرجعُ نَفسُه، ٧٩-٨٠.

المحددة لها فحسب، بل إنها تشدد على التعارض التخيّلي بين العالمين «الشرقي» و«الغربي» وتفوق هذا الأخير على حساب الأول، مما يسمح لها بعرض الهوية الأوروبية الذاتية في أوضح صورة.»[٥٧]

لكن ما يُلاحظ على زهير سوكاح هو أن جهده النّظري في تحديد مفهوم الاستشراق ومحاورته وتوسيعه حتى يُلائم فرضيته، على الرغم من أهميته، أخذ حيزا أكبر إلى جانب مفهوم الرحلة، إذ خصّص مبحثاً لكل واحد منهما (٥٨ صفحة)، مقارنة مع الجانب التطبيقي الذي اقتصر فيه على مبحث واحد (٢٧ صفحة) حاول فيه إثبات مُنطلقاته النّظرية والمُتمثّلة في تطور صور الشرق في الرحلات الألمانية في القرن التاسع عشر وفي مطلع القرن الواحد والعشرين، مفندا تصور إدوارد سعيد عن الاستشراق الألماني بأنه كان علميا، ليؤكد أنه لم يخرج عن التوجه العام للاستشراق الغربي القائم على المركزية الغربية.

٢-٣- التباس المفاهيم بين المستويين النظري والتطبيقي

تبنّى محمد شداد الحراق مفهوما للنّص الرحلي، انطلاقا مما يحتويه هذا الأخير من مكونات، سواء أكانت أدبية أو معرفية، تحقّق الهدف العام الموجه له في دراسته، والمتمثل في الهوية المزدوجة للنّص الرّحلي القائمة على البُعدين الإثنوغرافي والبُعد الأدبي، كما يبرز في قوله: «جاءت أغلب الرحلات حاملة لإرهاصات مشروع علمي متكامل، له عمقه المعرفي، وله أبعاده الإنسانية والحضارية والجمالية، تتقاطع فيه المادة الإثنوغرافية مع باقي المواد الأدبية والحكائية والدينية وغيرها من الخطابات المشكلة لمرفولوجية البنيان الفني لنص الرحلة.»[٥٨]

وتتمثل الازدواجية في مفهوم محمد شداد الحراق للنص الرّحلي في كون هذا الأخير يتأسّس على الجَمْع بين التّوثيقي والأدبي، وهذا ما يتحقق في نظره في كتاب الرياحين الوردية الذي يقول عنه: «فـ «الرياحين الوردية" سجل وثائقي حافل بالإحالات والنصوص ذات المضمون الإثنوغرافي. وهي، من ناحية أخرى، مدونة أدبية فريدة، تكشف عن ذوق أدبي رفيع، وعن حس فني أصيل، إذ صارت، بمادتها الأدبية المتميزة، عبارة عن خزانة لفنون الأدب الرفيع، ومستودعا لدرر النصوص الشعرية والنثرية البديعة والنادرة.»[٥٩]

لكن حين انتقل الباحث من المستوى النظري إلى مستوى التطبيق، أصبحت بعض المفاهيم غير واضحة، ولا أدل على ذلك هو أنه يجعلها تسع ما يخرج عن نطاقها ولا سيما مفهومي الإثنوغرافيا ومفهوم الأدب.

فعلاً يبدو أن مفهوم الإثنوغرافية غير واضح لدى الباحث، على الرغم من إدراجه لتعريف حسين محمد فهيم القائل: «هي الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد والقيم والأدوات والفنون والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة أو مجتمع معين خلال فترة زمنية محددة.»[٦٠] خصُوصاً حينَما انتقَل إلى تحليل كتاب الرّياحين الوردية في جانبه

(٥٧) المرجعُ نَفسُه، ٧٩.

(٥٨) محمد شداد الحراق، كتب الرحلة بين الهوية الإثنوغرافية والحساسية الأدبية قراءة في الرياحين الوردية في الرحلة المراكشية لمحمد المكي الناصري الدرعي، ٧-٨.

(٥٩) المرجعُ نَفسُه، ٦٧.

(٦٠) حسين محمد فهيم، أدب الرحلات (الكويت: منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٣٨، ١٩٨٩)، ٤٩.

الإثنوغرافي، نـراه يضمّ مباحث بَعيـدة عن اهتمَام الإثنوغرافيا مثل ما أسْماه «المتن التاريخي» و«المَتن الجغـرافي» و«المتن التّرجمي والفهرسي»... إذْ يغفل الكاتب أن الإثنوغرافيا ترتبط بالإنسان لا بالطبيعة.

كمـا أن الباحـث قـام بإسـقاط الممارسـة الإثنوغرافيـة كعلم قائم بذاتـه حديث الظهور على ما سـمّاه منهج الناصري، والتي كانت غائبة تماماً عـن وعي هذا الأخـير، وتمثل ذلـك في مجموعة من الأسـس المنهجية يقول محمد شداد الحراق: «وهذا ما تفصـح عنه الآليات المنهجيـة الإثنوغرافية التي استعان بها في إنجاز هذا العمل الفريد وهي:

- الارتحال والنزول إلى الميدان
- التركيز على المعاينة المباشرة
- اعتماد المخالطة والمعاشرة
- الاستعانة بالمصادر المكتوبة
- الاستئناس بالروايات الشفوية
- إجراء الحوارات والمقابلات
- توثيق الأخبار
- تدوين المعطيات
- تجنّب الأحكام المسبقة

التزام الموضوعية قدر المستطاع.»[٦١]

ونجد أيضاً مفهوم الأدب غير واضح لدى محمد شـداد الحراق، ففـي تحليلـه للرياحـين الوردية، باعتبارهـا عمـلا أدبيـا، نراه يُـدرج النّقـد الأدبي في خانـة الأدب، في حديثـه عن المكونـات الأدبية في الرياحـين الورديـة، بينما، كما هو معلـوم، فالنقد خطاب حول الأدب يحاول الاقتراب بشكل كبير من دائـرة العلم بحكـم أهدافه واسـتراتيجيته وأدوات اشـتغاله، بل «يتأرجح بين وضعين: وضع الثقافة ووضع العلم. ويمارس وظيفته وإنتاجيته معرفيا، بصفتـه فعـلاً يحـاور العلم عـبر النـص الأدبي، ليعطي العلم انتشـاراً وتوسعاً في حقل الثقافة، ثم ليقـرب الثقافة عبر النص الأدبـي إلى مجال العلم، وبذلك يحقق للأدب اسـتمراريته وأهميته، ويتمكن من استثمار بقية الحقول المرجعية.»[٦٢]

هكذا نجد أنفسنا أمام تنويع في اشتغال المفاهيم في الكتب الثلاثة، تراوحت بين نحت مفاهيم جديدة واسـتعارة أخرى عند سعيد جبار، وتوسيع مفهوم كمـا اختار زهـير سـوكاح، وتفـاوت المفاهيم بين المسـتويين النظـري والتطبيقي عند محمد شـداد الحـراق. وما يلاحـظ عـلى التصـورات المفهومية الثلاث هو أن كل واحد منها ضيق المفهوم ليتجاوب مع اسـتراتيجيته، ويغفل خصوصية مميزة للنّص الرّحلي وهي حرية تحقّقاته النصية.

تركيب

نُلاحـظ اختلافا بـين الأعمال الثلاثة المدروسـة بتنوع على مسـتوى خلفياتها المعرفية (تداولية، ما بعد كولونياليـة، إثنوغرافية أدبية) وعلى مسـتوى مقارباتها وعلى مسـتوى النصوص التي عالجتها، وعلى مسـتوى الإشـكالات التي طرحتها والأهداف التـي حكمتها؛ وقـد انعكس ذلك عـلى المفاهيم، إذ لمسنا تباينا واضحا بين الباحثين الثلاثة في التعامل معها وفي توظيفها.

تعكس الأعمال المدروسـة هنـا ثلاثة أنماط من الدراسات في الجامعة المغربية:

(٦١) محمـد شـداد الحـراق، كتـب الرحلـة بـين الهويـة الإثنوغرافيـة والحساسـية الأدبية قـراءة في الرياحين الورديـة في الرحلة المراكشـية لمحمـد المكي الناصري الدرعي، ٦٠.

(٦٢) محمد الدغمومي، نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر، ١٠.

الأول يسـاير نهجـا مغربيـا ما زال سـائدا في الجامعـة المغربية، وهو نهـج تقليدي موضوعاتي، يرى في النص الرّحلي مجالاً لاستيعاب مجموعة من القضايا الثقافية والأدبية نصا يجمع بين التوثيقي والأدبي، وهو ما يمثله كتاب محمد شداد الحراق؛

والثانـي نهج يحـاول تطبيق بعـض المقاربات العلمية التي أثبتت جدارتها ويعمل على مسـاءلتها ويسـعى إلى توسـيعها لتقارب نصوصا بعيدة عن النطاق الذي حدده لها واضعها، كما تحقق ذلك في كتاب زهير سوكاح؛

والثالـث يحـاول التفكـير في كيفيـة تشـكل النصـوص الرحليـة، ويقـدم تصورا يـراه مفسرا لتشـكل وكتابة النّصـوص الرحليـة، وتحقق هذا المسعى في كتاب سعيد جبار.

المصادر والمراجع

العربية

- جبار، سعيد. خطاب الرحلة الذاكرة وآليات إنتاج الدلالة. القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، ٢٠١٧.
- الحـراق، محمد شـدّاد. كتب الرحلة بـين الهوية الاتنوغرافية والحساسية الأدبية قراءة في الرياحين الوردية في الرحلة المراكشية لمحمد المكي الناصري الدرعي. طنجة: سليكي أخوين، ٢٠٢٣.
- الدغمومي، محمد. نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر. الرباط: منشـورات كليـة الآداب والعلوم الإنسـانية الرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم ٤٤، ١٩٩٩.
- دكيفر، راينهـار. مقهى موكا تأمـلات في أكادير. ترجمة محمد خلوق. الـدار البيضاء: دار توبقال، ٢٠١٣.
- الساوري، بوشعيب. «إشكالية الانتقال من المفهوم إلى المصطلـح» ضمن مجلة مقاليـد، العدد الثاني، (ديسمبر ٢٠١١): ٣٣-٣٦.
- سـوكاح، زهير. تمثـلات الشرق في الـسّرد الرحلي الألمانـي دراسـة تحليليـة مقارنة. أبـو ظبي: دار السّـويدي للنـشر والتوزيـع/ بيروت: المؤسسـة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٢٠.
- محمـد فهيـم، حسـين. أدب الرحـلات. الكويت: منشـورات المجلـس الوطنـي للثقافـة والفنـون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٣٨، ١٩٨٩.
- المرابط، عبـد الواحد. «تحولات النقـد واليات نقد النقد قراءة في مـشروع الدكتور حميد لحميداني» ضمـن كتاب في الأدب والنقـد والترجمة قراءات في تجربة د. حميد لحمداني تنسيق: محمد مساعدي وعبد الواحـد مرابط ورضـوان الخياطي. ١٢٩-١٩٢. تـازة: منشـورات شـعبة الآداب واللغـات والتواصـل بالكليـة المتعددة التخصصـات بتازة، ٢٠١٥.

الفرنسية

BUNGE, Mario .L'épistémologie. Paris : Maloine, 1983.

Soler, Léna. Introduction à l'épistémologie. Paris : Editions Ellipses, 2000.

VIRIEUX-REYMOND, Antoinette. L'Épistémologie. Paris : P.U.F. (SUP), 1966.